



سيميائية القيم في الشعر المغربي
من خلال كتاب "النبوغ المغربي لعبد الله كنون"

ذ. عبد المجيد بَطالي *

تقديم:

إن نعت هذه الدراسة بـ: "سيميائية القيم في الشعر المغربي من خلال كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي"[1] "يرتكز أولا: على مجموعة من المنتخبات الشعرية التي تشكل إحدى لبنات هذا الكتاب الغني عن كل تعريف، الذي أرّخ من خلاله مؤَلّفُه لحقب مختلفة من العصور الأدبية المغربية، وحاز به صاحبه: العلامة المغربي عبد الله كنون، قصب السبق، "فجاء من أحسن ما أخرج للناس استقصاء وإتقانا للبحث والتحقيق وتصويرا للحياة العقلية بجميع فروعها في هذا القطر من أقطار الأدب العربي"[2]، وثانيا: على ما يلمسه المتلقي، من تأثر نخبة من الشعراء المغاربة بمجموعة من القيم الأصيلة المتجذرة في التاريخ العربي، من موروث ثقافي وحضاري وفني، ومن تفاعل فكري وأدبي مع مضامين القرآن الكريم، ومع الأحاديث النبوية، ومع الثقافة الإسلامية عموما "فمنهم من كان عالما بالنحو واللغة وكلام العرب وأيّامهم وأنسابهم، خطيبا، بليغا، وفقيها، عالما بالشريعة ميّالا إلى التصوف، وطبيبا.."[3] مما كوّن لدى هذه النخبة مرجعيةً للقيم واضحة المعالم، تضمنتها نصوصهم الشعرية، منتظمة بذلك ضمن "رؤية للعالم" تكاد تكون متشابهة وموحّدة، تسعى وفق خط واحد - رغم اختلاف العصور- متفردة بنظرتها للكون والحياة عموما "غير عازلة النص الشعري عن خصوصيته وذاتيته، بما تختزنه هذه

---

* باحث من المغرب.

1- عبد الله كنون "النبوغ المغربي في الأدب العربي"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة 3، 1975.

2- النبوغ: مقدمة الطبعة الثالثة بقلم طه حسين/ تقريظ طه حسين لكتاب النبوغ. ص: 9 نفس المصدر السابق. للمزيد من التفصيل عن خصائص النبوغ المغربي، يرجى العودة إلى تقريظ الأدباء لكتاب النبوغ من أمثال طه حسين وشكيب أرسلان وغيرهم في نفس المصدر.

3- للمزيد من التوسع يرجع إلى تراجم الشخصيات الأدبية والعلمية... في طيات النبوغ.

الذاتية من مشاعر وأحاسيس وهواجس ولواعج"[4] وبناء على هذا المعطى، تحاول هذه الدراسة تصنيف تلك القيم سيميائيا في الشعر المغربي من خلال النبوغ إلى موضوعات متفرعة، تنضوي تحت إطار تيمة أساس هي: "القيم"، ثم العمل على مقاربتها وفق قراءة نقدية للأنساق الدالة..

تجدر الإشارة إلى أن جميع الموضوعات سواء التربوية أو النفسية أو الروحية أو الأخلاقية أو الاجتماعية...، متداخلة / متناصة فيما بينها، يكمل بعضها بعضا،. بل تندرج في نسيج واحد هو "نسقية القيم"، وما هذا التقسيم والتصنيف إلا للبيان، والتحليل، والتشريح ليس إلا.

وإذ نَعْكِف على مقاربة هذه القيم بالتحليل والتفسير في الشعر المغربي من خلال النبوغ، لا نغفل الجانب الجمالي فيه، إذ بالجمالية يتميز عن الكلام العادي، لما للجمالية من تأثير قوي على المتلقي.

ولا نقصد بالجمالية هنا تلكم الجمالية النفعية، البرغماتية التي لا تنظر إلا لذاتها في نرجسية وأنانية، وإنما نقصد بها الجمالية ذات الأبعاد الإنسانية، التي تؤدي دورها الفاعل في المجتمع والمتلقي جاعلة منه الإنسان الجميل السوي، روحيا ونفسيا وفكريا لا ماديا فقط. والذي يرى الوجود والكون من حوله جميلا، وهذا تصور راق جدا.. فهو إن شئنا تجاوز للطرح الألماني مع (مورتيز) الذي يزعم أن الجمال: "لا يتجلى إلا في الشيء الذي لا يعني إلا نفسه، ولا يعيّن إلا نفسه ولا يحتوي إلا نفسه..."[5]

يمكن القول بداية إن أغلب مدار مرجعية هذه المنظومة، مبني على القيم التي تُؤسَّسُ عليها حياة المجتمعات الإنسانية عموما... باعتبارها مجموع الفضائل الدينية والخلقية والاجتماعية... ولأنها كذلك حبل وشائجي بين الأفراد والمجتمع...

4- حسن الوراكلي، "من تجليات الرؤية في النص الشعري المغربي الحديث" علامات في النقد، الفلاح للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 2001، المجلد 10 ج39 ص 189.

5- عبد المالك مرتاض "الأدب والأدبية بحث في الماهية" علا مات في النقد، الفلاح للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 2001، مج 10 ج 40 - ص 165.

مؤثرين فيه أو متأثرين به إيجابا، وفق (مرجعية للقيم) أو سلبا إذا ما خالفتها أو انزاحت عن سكّتها.

ويستطيع الدارس أن يستلهم كل الموضوعات / أو الثيمات المتعلقة بمنظومة القيم التي تضمنتها نصوص الشعر المغربي - من خلال النبوغ - لِوفرتها ومنها على سبيل المثال لا الحصر (تيمة الصبر، وتيمة القناعة، والصدق، والتواضع والصداقة... وغيرها) وهي تشمل كل مناحي الحياة الإنسانية، خصوصا - إذا ما علمنا مدى تأثر هؤلاء الشعراء بهذه القيم، التي تشربتها نفوسهم وتشبعت بها أحاسيسهم، ومشاعرهم، فجاءت تعبيرا أدبيا صادقا... ذلك "أن الأدب الحق: هو الأدب الذي يوازن بين ذاتية الأديب وبين ما للمجتمع من حقوق على الأدب والأدباء، ولا تعارض بين الناحيتين إذا كانت ذاتية الأديب سليمة بعيدة عن الانحراف والسقم والشذوذ، وحينئذ يكون من تمام إشباعها وإرضائها، الإسهام في تكوين مجتمع سليم صحيح"[6]

إنها رؤية ثاقبة متكاملة للأدب والأديب معا، تمتح من مرجعية القيم... ويلاحظ تداخل ثيمات الاجتماعي بثيمات الأخلاقي أثناء تشريح الخطابات الشعرية، إذ لا يمكن عزل الإنسان عن مجتمعه، أو عزل الأخلاقي عن الإنساني، فكلاهما يلتصق بالآخر التصاقا وثيقا.. فالإنسان متلقٍّ عن المجتمع وفاعل فيه أو منفعل به، والمجتمع كما هو معلوم مدرسة مرجعية للقيم المتنوعة السوية منها وغير السوية.

1- **في القيم الاجتماعية :**

1-1 -**تيمة الصداقة والأصدقاء :**

إن تجليات الجمال في (تيمة الصداقة والأصدقاء) تتجلى مظاهرها سيميائيا في صفاء العلاقة المتوجة بالمودة والمحبة بين الطرفين، دوامُها مرتبط بِعُرَى الإخلاص فيها... "كما أن للصداقة قدسية قد تسمو على بعض الدرجات القريبة

[6]- د. درويش الجندي "الرمزية في الأدب العربي"، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة - القاهرة، الطبعة الأولى، ص 544.

من القرابة، فقد قيل في أمثال العرب (ربّ أخ لم تلده لك أمّك).. كما أن الصداقة ضرورة اجتماعية... وهي فن من فنون المعاشرة..."[7].

يغرف العلامة "المكودي" في مقصورته من منظومة القيم، فتأتي أبياته مفعمة بالجمال الخلقي والصفاء النفسي... يقول عن الصداقة والأصدقاء:

وَسِــرّكَ اكْتُمْــهُ عــن الخَــلْقِ وَلَا ** تُطْلِــعْ عَلَيْــهِ أَحَــدًا مِــنَ الــوَرَى
وَاقْنَــعْ علــى عِــزٍّ بِمَــا يكْفــي وَلَا ** تَحْــرِصْ فَــإنّ الْحِــرْصَ ذُلُّ الفَتَــى
وَســايِرِ النّــاسَ عــلى أَخْــلاقِهم ** وَسَــاعِدِ المسْــعد وَاحْمِـلْ مَـنْ جَفَـا
وَصــافِهِم وَإِنْ أَســاءوا نِيَّــةً ** فإنّمــا لِكُــلِّ مَــرْءٍ مَــا نــوَى
(النبوغ) [8]

لا ريب أن المتلقي لهذا الخطاب الشعري، لا يجد صعوبة في اكتشاف ملامح تجليات القيم الاجتماعية باعتبارها علامات دالة على واقع الناس في المجتمع، مُقْتبَسًا من جواهر منظومة القيم من تسامح، وتقبّل الآخر والانفتاح عليه...

مخالطة الناس <=> الصبر على الأذى

يلاحظ في البيت الثالث تنّاص مع الحديث الشريف: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"[9].. ليتجلى من خلاله مظهر من مظاهر الجمال الخُلقي والسلوكي في تمتين الروابط الإنسانية (بالمخالطة الإيجابية) التي تتوج بتاج الصبر والحلم..

وفي البيت الرابع تضمين واقتباس للحديث الشريف "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"[10].

7- حكمت صالح، "دراسة فنية في شعر الشافعي"، مطبعة عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1984.. ص 152- 153.
8- عبد الله كنون، "النبوغ المغربي "، ج 3- ص852، 853.
9- عَنِ اِبْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ - صلى الله عليه وسلم – "اَلْمُؤْمِنُ اَلَّذِي يُخَالِطُ اَلنَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ اَلَّذِي لَا يُخَالِطُ اَلنَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ " أَخْرَجَهُ اِبْنُ مَاجَهْ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ. الحديث.
10- حديث: " إنما الأعمال بالنيات..."رواه البخاري ومسلم.

كما يحذر المكودي في مقصورته من معاملات شتى، لا تليق بالقيم الإنسانية عموما ولا بالجمال الأخلاقي والخلُقي معا، نقتطف منها هذه الأبيات في موضوع الصداقة:

كَــمْ مِــنْ صَــديقٍ مُظْهِــرٍ لِــوُدِّه ** لَكِـنْ لـه قَلْـبٌ على الحِـقْدِ انْطَـوَى
يَــبَشُّ فــي وَجْهِــكَ إِنْ لاَقَيْتَــهُ ** وَإِنْ تَغِــبْ يَغْتَبْــكَ فـي كُـلِّ مَــلَا
يُــذيعُ مــا يَــراهُ مِــنْ قُــبْحٍ وَإِنْ ** رَأَى جَمــيلًا مِنْــكَ أَخْــفَى مَــا رَأَى
(النبوغ) [11]

لقد أسهم الشعر المغربي بما يرفده من قيم إنسانية وجمالية وخُلقية "... في طرح مادة ثرة ثمينة أمام المربّين والمعلمين، لينشّئوا عليها أبناءهم وتلاميذهم..."[12] ترتبط بها لتبني معها جداراً متماسكا من القيم تتوحد فيه ومعه رؤية الشاعر...

يحذّر الشاعر من الإنسان (ذي الوجهين) الذي لا تستقيم صفاته مع مرجعية القيم النبيلة.. "لأن الصداقة الحقّة مبدأ مُرتقاهُ صعبٌ ونبيل"[13]... مستعملا بذلك تركيبيا، جملة فعل الأمر في البيت الذي تكرر (ثلاث مرات) لأهمية الموقف (فاترك) و(اهجر) و(دع). للدلالة على ركائز قيم الصداقة، إذ لا يكون التخلي عن هؤلاء الذين ليسوا من الأصدقاء لمصلحة ذاتية، وهذا بحق أرقى الجمال الخلقي في تذويب غطرسة الذات، وتنكيس عجرفة الأنا كما في الحديث المشهور "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه"[14]

1- 2- **تيمة الأخلّاء:**

إن موضوع "الأخلاّء" يحتل مرتبة أعلى في الحقل المعجمي لمنظومة القيم، باعتبار أن "الخِلّةَ هي نهاية المحبةِ. ولأن المحبةَ عامة؛ والخِلّة خاصة. فقد (اتخذ الله

11- عبد الله كنون" النبوغ المغربي"، ج 3- ص: 853

12- حكمت صالح "دراسة فنية في شعر الشافعي" ص 150.

13- نفس المصدر السابق، ص 153.

14- حديث: "لا يؤمن أحدكم حتى.." رواه البخاري ومسلم عن أبي حمزة أنس ابن مالك(ض). (للتوسع راجع الجانب الاجتماعي للحديث/ محمد تاتاي، "إيضاح المعاني الخفية في الأربعين النووية" ص:100.

إبراهيم خليلا)، كما أنها تتضمن كمال المحبة ونهايتها... بحيث لا تدع في القلب سِعة لغير المحبوب، وهي مَنْصِبٌ لا يقبل المشاركة بوجه ما... " (15)

إنها رؤية متميزة لهذا السلوك الإنساني الرفيع، نجدها منغرزة في أعماق شعرائنا المغاربة، يصدرون عنها في قصائدهم... إذ نقرأ في هذا الصدد لأبي حفص الفاسي في كتاب النبوغ المغربي من قصيدة له على منوال لامية العرب:

وَسَامِـحِ الخِـلَّ إنْ زَلَّـتْ بِـهِ قَـدَمٌ ** فَلَسْـتَ تُبْصِـرُ خـلًّا غيْـر ذي زَلَـلِ
وَإنْ تَضَعْضَـعَ رُكْـنُ الـوُدِّ منْـه فَـلَا ** تَعْـجَلْ وَقَـدْ خُلِـقَ الإِنْسـانُ مِـنْ عَجَـلِ
(النبوغ) (16)

تُعْرِبُ هذه الأبيات عن شاعرية سمحة، متخلّقة بخلق الجمال الإنساني، الذي أنتج هذه الرؤية السلوكية السوية، في معالجة ما يصدر عن الخلّ بصفته إنساناً غير كامل يصيب ويخطئ موجها المتلقي سيميائيا إلى (بؤرة النص) لتلقي القبس النوراني في أبهى تجليات الجمال؛ محذراً إياه بأن لا يعجل وقد ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾ الأنبياء/37. يقول الشاعر:

أَهٍ فَأَلْسِنَـــةُ التَّجْرِيـــبِ قَائِـــلَةٌ ** تَـوَهُّمُ الخِـلِّ في الدّنْـيا مِـنَ الخَلَـلِ
(النبوغ) (17)

بعد هذا التأوه لأبي حفص الفاسي على فقدان الخل الحقيقي، السوي في حياة الناس والمجتمع.. وكأن من يؤمن بأن هناك خلا حقيقيا فقد توهم، بل قد أصابه الخلل، وهو مصداق لما تناقلته ألسنة المجرّبين للخِلّةِ. لكن هذا لا يمنع من أن يقدم الشاعر ما ينبغي أن يكون في الخِلّ/ البديل من خلال رؤية مُؤَسَّسَةٍ على مرجعية للقيم، لها نسقها المنتظم في المعاملات، مُجْمِلاً ذلك في عدد من الصفات... يقول:

---

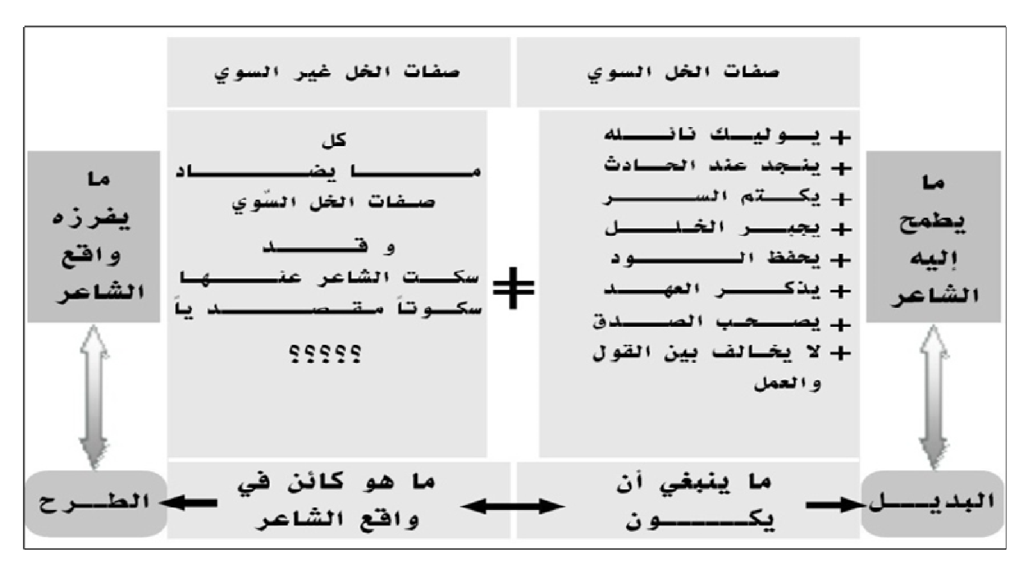
[15]- ابن القيم الجوزية، "الجواب الكافي" مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الأولى، 1996، ص: 371، 373

[16]- عبد الله كنون، "النبوغ المغربي.." ج3- ص870.

[17]- نفس المصدر السابق، ج3-ص870.

وإنّمــا الخِـــلُّ مَــنْ يُولِـــيكَ نَائِلَـــهُ ** دَأْبًـا وَيُنْجِـدُ عـــنْد الحَـادِثِ الجَلَـلِ
ويكْـتم السِّـرَّ إنْ أفْشَـاهُ ذو سَـــفَهٍ ** وَيَجْبُـرُ الخَلَـــلَ المَرْمـــوقَ بِالخِلَـــل
وَيَحْفَـظُ الـودَّ في سِـرٍّ وفي عَلَـنٍ ** وَيَـذْكُرُ العَـهْدَ في ضَـنْكٍ وفي غَفَـلِ
وَيَصْحَبِ الصِّـدْقَ في جِـدٍّ وفي هَـزَل ** وَلا يُخَـــالِفُ بـيْن القَـــوْلِ وَالعَمَـــلِ
فَمُبْـرَمُ العَهْـدِ منْـه غيْـر مُنْفَـصِمٍ ** وَمُضْـمَرُ الـوُدِّ فيـه غيْـر مُنْفَـصِلِ
وَآيَــةُ الصّـــدْق فـي دَعْـــواهُ بَيِّنَـــةٌ ** مَـنْ رَامَ نَقْـضَ عُراهَـا الـدَّهْرَ لَـمْ يَصِـلِ
(النبوغ) (18)

يعدِّد الشاعر مجموعة من الصفات الإيجابية في الخل البديل عن الخل المزيف، والتي يطول الحديث عنها، نستنتج منها ما جاء في هذه الأبيات ضمن الخطاطة التالية:



يستطيع الشاعر المغربي أبو حفص الفاسي أن يضع المتلقي ضمن رؤية متميزة للعالم في إطار نسقي دال على منظومة القيم، وبالتالي لينقله من عالم ما هو كائن في واقع الناس وحياتهم، إلى عالم ما ينبغي أن يكون في واقعهم البديل، والذي يحمل الشاعر همَّه بين جوانحه ومشاعره والبوح به إلى كل متلقٍّ متبصر...

18- نفس المصدر السابق، ج3-ص 870، 871.

2- في القيم الأخلاقية :

وبما أن منظومة القيم في الشعر المغربي اِقتضت البحث في مضامين النصوص الشعرية المغربية، من خلال كتاب النبوغ، عن مختلف الموضوعات المتعلقة بالقيم الأخلاقية والسلوكية، فقد وجبت الإشارة إلى تقصّي هذه القيم التي كان يصدر عنها هؤلاء الشعراء في نصوصهم، التي هي عبارة عن تلك الأفعال الجميلة الراسخة في نفوسهم؛ الصادرة عنهم من غير تَصَنُّع ولا تكلُّف في ارتقائية إلى حبّ الجميل وكراهية المُشين، بالتربية الحسنة في توجيه النفس وتهذيبها ليصدر عنها: الصدق، والحلم، والقناعة، والصبر، والترفع... وما إلى ذلك من تجليات فضائل الأخلاق النبيلة...

كما قال الشاعر المغربي أبو حفص الفاسي:

وَرَوِّضِ النّفْسَ وَاسْتكْمِل فَضائِلَها ** تَجْني ثِمارَ المُنَى مِنْ رَوْضِها الخَضِلِ

ويُعزى تردّي الواقع الاجتماعي، وتراكمات النفس الإنسانية المشحونة بالسيئ من الأخلاق، والفاسد منها.. لاِنحراف في الرؤية... أو اختلال في التربية... الشيء الذي أوجب على هؤلاء الشعراء أن يُنْتِجُوا هذا النوع من الخطاب أو ما يمكن تسميته ضمن قراءة سيميائية بالنص التغيير الذي يتغيا تَقْوِيم واقِعٍ اِخْتَلَّتْ فيه موازين الأخلاق والقيم.

2-1- تيمة القناعة :

يقول الشاعر أبو حفص الفاسي:

مُلــكُ القَناعَــةِ لا تَنْفَــكُّ إِمْــرَتُهُ ** فـي ظِـلِّ عِــزٍّ مَديــدٍ غيْــر مُــنْتَقِلِ
فَــنَمْ بــه غيْــر مَــزْؤودٍ وَلَا وَجِــل فَفِـي القَناعَــةِ مَنْجــاةٌ مِــنَ الغِيَــلِ
(النبوغ)[19]

[19]- عبد الله كنون "النبوغ المغربي"، ج3- ص869.

يصور الشاعر "القناعة" على أنها مُلْكٌ معنوي لا تنفك إمارته => مُحَصَّنٌ => في ظلّ عز مديد => لا يتحوّل، ولا تطيش به الأهواء، ولا يتَصَرَّم، ينام فيه صاحبه => القنوع => غير مذعور ولا مفزوع ولا خائف... وهذا التصور لجمالية خُلق القناعة لا يصدر إلا عن رؤية نفسية هادئة قنوعة راسخة، تدعو إلى النجاة من الغِيَل "ففي القناعة منجاة من الغيل" تلك الغيل التي أنتجت قيما أخلاقية دنيئة: من جشع، وطمع، وبخل، وشح... وما إلى ذلك مما يزخر به مجتمع الشاعر آنذاك، هي قيم في نهايتها وليدة نِتَاج الواقع الاجتماعي المتردي من جرَّاء خلل في النفس وفي التربية.

2-2- **تيمة الصبر:**

ومن الثيمات التي تناولها الشعر المغربي من خلال النبوغ "تيمة الصبر" باعتباره قيمة من قيم الجمال النفسي، يرقى بصاحبه معارج الكمال والجمال... وفيه يبثّ الشاعر خطابه للمتلقي تبيانا لما تكنّه صدور الحسّاد من غل وحقد وعلل، فلا تجد الشاعر هنا إلا وقد غرف من حوض الرؤية الإيمانية المضاءة بأنوار منظومة القيم.

يقول الشاعر أبو حفص الفاسي في لاميته:

وَاصْبِرْ على مَضَضِ الحُسّادِ مُتّئِدًا ** فَالصّبْرُ: يُولِيكَ ما لَوْلاهُ لَمْ تَنَلِ
أَمَا يَسُرُّكَ أنّ القوْم قد ضَمِنَتْ ** صُدورُهم أَعْظَمَ الْأَدْواءِ وَالعِلَلِ
يَا وَيْحَهُم كلّما زَادَ الفَتَى شَرَفًا ** زَادُوا به أَسَفًا يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ
أَوْلى لهم يسْخطوا صُنْعَ الحَكيمِ فما ** أَوْلاهم بِعظيمِ الخِزْيِ وَالْفَشَلِ
ودون شهْد الْمُنَى من نَحْلِهِ إِبَرٌ ** فَاصْبِرْ لها إنْ أَرَدْتَ الْفَوْزَ بِالنّحلِ
(النبوغ) [20]

[20]- نفس المصدر السابق، ج3-ص 869، 870.

في هذه الأبيات يحض الشاعر المتلقي على الصبر، ذلك الخلق الذي هو "بضاعة الصِّدِّيقِينَ وشعار الصالحين.."[21] والذي يُعَدُّ المنزلة العالية عند الله. (يوليك ما لولاه لم تنل) البيت الأول.

وإن أعظم الجزاء مع عظم البلاء، وأن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط[22]. لذلك يوجه الشاعر خطابه/ النص البديل عن الابتلاء فيقول: "فالصبر يوليك ما لولاه لم تنل".

ويقول من نفس القصيدة.

ودون شهد المنى من نحله إبر ** فاصبر لها إن أردت الفوز بالنحل

فالفوز بالنِّحل، لا يناله إلّا من صبر، وأما الحساد والحاقدون فقد سخطوا صنع الحكيم الجليل، فجزاؤهم الخِزْي والفشل... ما أروعه من تصوير فني للواقع حينذاك حيث زاغت البشرية عن الأخلاق الفاضلة، فانزاحت بذلك عن دائرة القيم...

2-3- **تيمة النفْس/فضائل النفْس:**

يقول الشاعر أبو حفص الفاسي من نفس القصيدة:

وَرَوِّضِ النَّفْسَ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائلَها ** تَجْنِي ثِمارَ الْمُنَى مِنْ رَوْضِهَا الْخَضِلِ
وَتَجْتَلِي أَنْجُمًا زُهْرًا وَآوِنَةً ** بُدور تمّ وأخرى الشمْس لَمْ تَزُلِ
تلْك السعادةُ لا جاه وميْسرة ** ولا الترفه والارفاه في الحلل
فَالمَرْءُ بالنفس لا بالجسْم مُرْتَفِعٌ ** والسَّيْفُ بِالنَّصْلِ لَا بِالغِمْدِ وَالخلل
والنّفْس أنفس ما يُعْنى اللّبيبُ به ** فَارْبَأْ بنفْسِك أن تُعْنَى بِمُنْسَفِلِ
وَالْجَأْ إلى الله في أَمْرٍ تُحاوِلُهُ ** وَابْرَأْ إلى الله مِنْ حَوْلٍ وَمِنْ حِيَلِ

[21]- أبو بكر الجزائري "منهاج المسلم" دار السلام، مصر – القاهرة، الطبعة الرابعة -ص/118.
[22]- حديث " وإن أعظم الجزاء..." / رواه الترمذي وابن ماجة / منهاج المسلم- ص/139.

وكِلْ إلى الله كُلَّ الأمر وَاغْنَ به ** عَمَّنْ سِواهُ فَإنّ الله خَيْرُ وَلِي
(النبوغ) [23]

وللارتقاء بفضائل النفس وجمالها لا بد من ترويضها على القيم الرفيعة، ذلك أن من ذاد عن نفسه بما هو أصلح لها فإنه (يجني ثمار المنى، ويجتلي الأنجم الزهرا...) كما قال الشاعر. ليحصل في النهاية على السعادة.. وفي الأثر "وجبَت محبّة الله على من أُغْضِبَ فَحَلَمَ" فقمّة الجمال والكمال أن يحبّك الخالق، فكن لبيبا كما قال الشاعر: (واربأ بنفسك أن تعنى بمنسفل) لذا نجده حَمَّلَ البيتين الأخيرين بصيغة الأمر. مجموعة من الأفعال الآمرة لما للمقام من أهمّيةٍ بالغة في الرجوع إلى منظومة القيم: (فالْجَأ...وابرأ...وكِلْ...واغْن... فهو خير ولي...) وإذن فقيم (الصبر، الحِلم، القناعة، فضائل النفس...)، تُعَدُّ الضَّامِن الوحيد لقيام علاقات اجتماعية سوية من غير شذوذ؛ مُرَشَّدة بمنارة القيم السامية... والأثر الشعري الذي نحن بصدد دراسته هنا هو من زاوية منظومة القيم خطاب رسالي يسهر على تشذيب وتهذيب القيم وإصلاحها إذا ما انحرفت عن قيم الحق والخير والجمال. لذا جاءت هذه القصيدة الرائعة لأبي حفص، طافحة بالقيم الإنسانية، قدّمها في طبق شعري بديع منسجم في طرح القضايا الإنسانية للمجتمع المغربي من خلال مجموعة من "التقابلات والتعادلات"[24] تعكس العلاقة بين مثالية القيم والواقع...

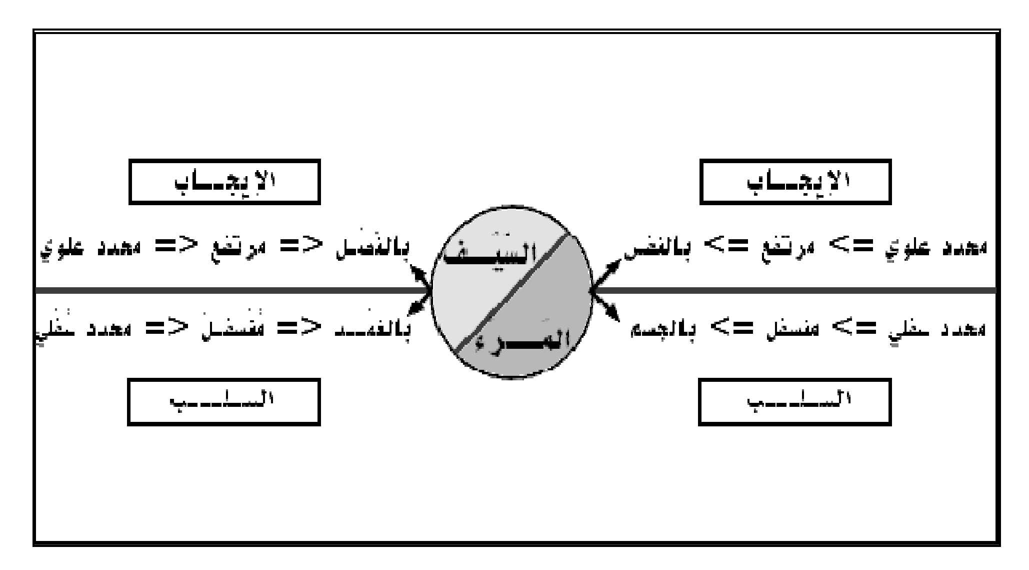
محدد علوي => النفس <=> الترفع <= مقام علوي
محدد سفلي => الجسم <=> السفول <= درك سفلي

[23]- عبد الله كنون النبوغ، ج3-ص: 871، 872.
[24]- محمد مفتاح، "تحليل الخطاب الشعري - استراتيجية التناص"، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1985 - ص:321- 322.

وفي إطار سيميائية القيم.. يمكن استكناه مجموعة من التقابلات والتشاكلات، لإبراز مُحَدِّدَاتٍ من التدافع بين قيم الواقع ومنظومة القيم من خلال الحِكَم التي جاء بها الشاعر في قصيدته مثل:

فَالمرْءُ بالنّفْسِ لا بالجسْمِ مُرْتَفِعٌ ** وَالسّيْفُ بالنَّصْل لا بالغِمْدِ وَالخُلَلِ

وَالنّفْس أَنْفَسُ ما يعْنى اللّبيبُ به ** فَارْبَأْ بِنفْسكَ أَنْ تعـنى بِمُنْسَفِـلِ



ولهذا الطرح ما يبرره، ذلك أن أبا حفص الفاسي كان جماع علوم، لذا جاءت أبيات قصيدته مفعمة بالحكم، والمنطق، والواقعية، والتحليل، والرؤية الفلسفية للأشياء في إطار من الوضوح في الرؤية والموقف من الأشياء والحياة، فنلاحظ وكأنه يحلل الأفكار ويعللها لإقناع المتلقي بأن النفس مرتفعة علوية، وأن الجسم ترابي منحط ومنسفل، يطمح إلى الشهوات والملذات.. وأما النفس إذا شُذبت وهذبت بالتربية الصحيحة، فإن المرء ينال بها سعادة عظيمة. والمرء لا تتحقق فيه إنسانيته إلا بالنفس والروح الطامعة في السعادة، وأما بالجسم وحده فلا يحقق إنسانيته، وهذا لعمري طرح فلسفي رائع من هذا الشاعر في أبيات مختزلة، وتمثيل رائع جدا.

3- **القيم التربوية:**

مما لا ريب فيه أن المنظومة القيمية في الشعر المغربي من خلال النبوغ، قد شملت جانب القيم التربوية في تصور راقٍ لمجمل مناحي حياة الناس والمجتمع، وتمثلت فيما هو أخلاقي تربوي متعلق بسلوك الأفراد في علاقاتهم ببعضهم وبالمجتمع، ومنها ما هو روحي متعلق بالتربية الروحية والنفسية وهذا لخاصة الناس كالسالكين والزهاد والنّسّاك...

والشعر المغربي باعتباره خطابا بشريا ذاتيا، يعكس مدى تأثره بتلك القيم التربوية: من أحاسيس ومواقف هذا الشاعر أو ذاك كل حسب درجة تلقيه معاني هذه القيم...

3-1- **قيم تربوية تعليمية:**

3-1-1-**تيمة السفر:**

تعتبر تيمة السفر من المواضيع التي شملتها منظومة القيم، باعتباره وسيلة تربوية ونفسية هادفة إذا كانت لأجل الفائدة والاستفادة لا لأجل التبذير وغيره...

يقول الشاعر الشيخ يعلى أبو الجبل:

سَافِرْ لتكْسب في الأسْفار فَائِدَةً ** فَـرُبَّ فَـائـدةٍ تُـلْفى مع السَّـفَـرِ
ولا تَـقُـمْ بـمكـان لا تُصيبُ بــه ** نُصْحًا وَلَوْ كنْت بيْن الظِّلِ وَالشَّجَرِ
فَـإنّ مـوسـى كَلِـيمُ الله أَعْـوَزَهُ ** عِلْـمٌ تَكَـسَّبَـهُ في صُحْبَـة الخَضَرِ

(النبوغ) [25]

يلاحظ الدارس كيف تعامل الشاعر المغربي الشيخ يعلى أبو الجبل، مع قيمة السفر، تعاملا ينبو عن رؤية شعرية أدبية ثاقبة متبصرة، تمتح من عمق التاريخ والتراث. ولكي يكون خطاب الشاعر معززا بهذه الرؤية، اِسْتلهم لموضوع السفر

25- عبد الله كنون"النبوغ المغربي"، ج3-ص:843

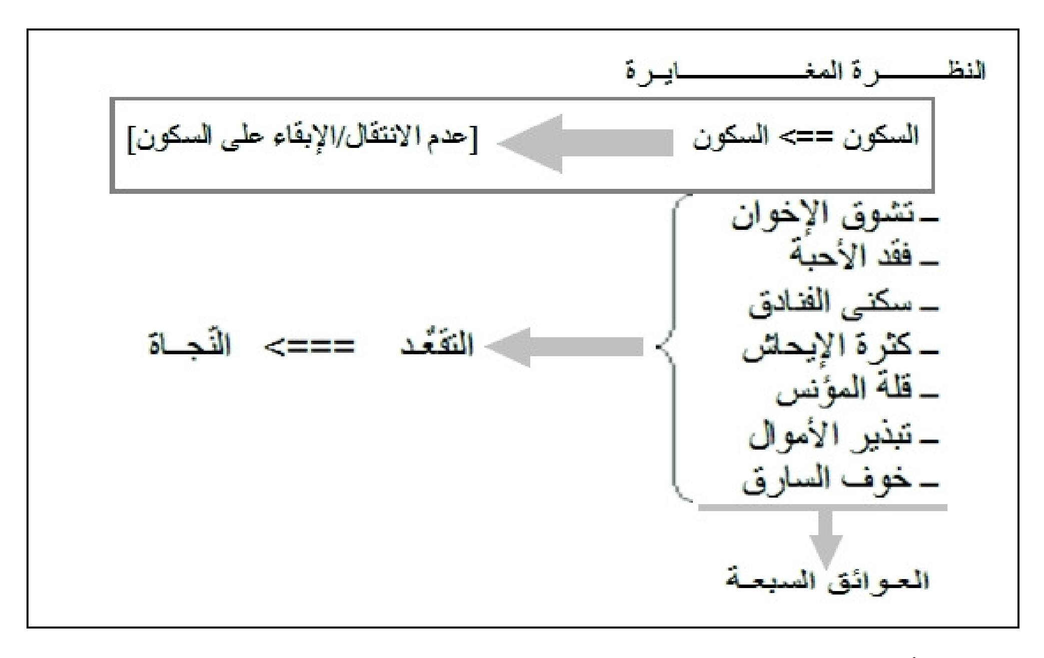
القصة القرآنية: (قصة موسى كليم الله مع الخضر) مختزلا مضامينها الحية لخدمة النص الشعري بغية تأسيس قيم تربوية إنسانية...

وللقاضي عياض في ضده:

تَقَعَّـدْ عَـنِ الأَسْـفارِ إنْ كُنْـتَ طَـالِبًا ** نَجـاةً ففـي الأسْـفار سَبْـعُ عَـوائِـقِ
تَشَـوُّقُ إخْـوانٍ وَفَـقْدُ أَحِـبَّةٍ ** وَأَعْـظَمُهَا يَـا صَـاحِ سُـكْنَى الفَنـادِقِ
وَكَثْـرَةُ إيحـاشٍ وَقِـلَّةُ مُـؤْنِسٍ ** وَتَبْذيـرُ أَمْـوالٍ وَخِـيفَةُ سَـارِقِ
فَـإنْ قِيـلَ في الأَسْـفارِ كَسْـبُ مَعيشَـةٍ ** وَعِـلْمٌ وَآدَابٌ وَصُـحْبَةُ وَاثِـقِ
فَقَـدْ كـان ذا دَهْـرًا تَقـادَمُ عَهْـدُهُ ** وَأَعْـقَبُهُ دَهْـرٌ شَـديدُ المَضـايِقِ
فَهَـذَا مَقـالِي وَالسّـلامُ كَمَـا بَـدَا ** وَجَـرِّبْ فَفِـي التَّجْرِيـبِ عِلْـمُ الحَقَـائِقِ
(النبوغ) [26]

يقدم الشاعر القاضي عياض، مجموعة من العلامات الدالة سيميائيا للتعبير عن صورة مضادة للحركة بدل السكون؛ مراعيا في ذلك تجربته الفاشلة في الأسفار والترحال، في الأبيات (1-2-3)، ويعلل ذلك في الأبيات(4-5-6) بأنه "كان ذا دهرا" أما اليوم أي (زمن الشاعر) فلا؛ وإن كان ضمنيا مع التّحوّل وعدم الركود إذا بطلت الأسباب التي منعته، وهذه الرؤية لها ما يبررها في واقع الشاعر وعصره.

26- نفس المصدر السابق، ج3-ص: 843، 844.



ولأبي حفص الفاسي:

وإن سَئِمْتَ أو استوْخمْتَ منْزلةً ** فَعَالِجِ النّفْس بِالتّرحالِ والنّقلِ
فالسلسلُ العذْب في الأنهار مُطَّرِدُ ** وَرَاكِدُ الماءِ لا يخْلو مِنَ الدَّخَـلِ
وَخُضْ لِنَيْلِ العُلَا بَحْرَ المكـارِهِ لا ** تجْبُن فما يَدْفَعُ المقْدورَ في الأَزَلِ

(النبوغ) (27)

ومن ثمرات السفر الاستفراغ النفسي... بالتربية على قيم الجمال في النفس الإنسانية التي تمل وتكل بتراكمات الحياة ومشاقها، لذا يدعو الشاعر أبو حفص إلى الرحلة والسفر والترحال لمعالجة النفس من السأم والاستثقال في قوله:

وإن سئمت أو استوخمت منزلة ** فعالج النفس بالترحال والنّقل

فالماء الراكد الجامد فيه من الدلالة على الدَّخَل والتَّعَفُّن ما لا يوجد في الماء الجاري المطرد.. فمن أراد العلا، عليه أن يخوض بحر المكاره، وألا يجبن ويتخاذل.

27- عبد الله كنون، "النبوغ المغربي"، ج3-ص: 869.

لأن الجبن ركود وذل وهوان، ليؤسس بهذا الترحال، وبهذا التّحَوُّل، الأثر الإيجابي في حياة الناس عبر نسقية من القيم.

الحركة =/= السكون => الحركة = السلسل العذب = النهر المطرد (+) حركة.

الحركة =/= السكون => السكون = راكد الماء = فيه دخل (-) حركة.

ويرصد الشاعر المغربي في خطابه الشعري ضمن سيميائية القيم، مجموعة من التحولات الاجتماعية والنفسية التي على المتلقي/ المجتمع بكل مكوناته أن يعيها، تحولات (من السلب إلى الإيجاب)، للارتقاء بجمال الروح والنفس لمعالجتها من السأم والانقباض إلى الانشراح والانبساط.. وهذا أمر تنبّه إليه الطب النفسي الحديث ودعا إليه...

3-1-2- **تيمة العلْم:**

وللقاضي أبي حفص ابن عمر:

بِقلْبكَ يَا غَافِلًا فَانْظُرْ ** وَعيْنيْكَ غَمِّضْهُمَا تُبْصِرْ
إِذَا أُرْسِلَ الطَّرْفُ هَام الفُؤادُ ** وَبَعْضُ المَرائِي عَمَى الْمُبْصِرْ
وَآفَةُ قَلْبِ الفَتَى عَيْنُهُ ** فَإِنْ تَرْعَ قَلْبَكَ لا تَنْظُرْ

(النبوغ) [28]

وهذا الكلام يذكرنا للتو بقول الإمام الشافعي (رضي الله عنه):

شكوْت إلى وكيعٍ سُوءَ حِفْظي ** فأرشدني إلى ترْك المَعاصي
وأخبرني بأن العلْم نُورٌ ** وَنُورُ الله لا يعْطى لعاصي

[28]- عبد الله كنون، "النبوغ المغربي"، ج3-ص: 844.

فهذا التناص جلي، سواء على مستوى المضامين أو على مستوى البعد الثقافي والتربوي الذي يحمله النص، ولا شك أن النص يضع بعض آداب المتعلم التي هي من ضوابط أدبيات التعلّم..

ويقول القاضي أبو حفص ابن عمر أيضا:

العِلْمُ يَكْسو الحُلَلَ الفَاخِــرَهْ ** والعِلْمُ يُحْيِي الأَعْظُمَ النّاخِــرَهْ
كَمْ ذَنْـبٍ أصْبـح رَأْسًـا بــــه ** وَمُـذْنِـبٍ أَبْـحُــــرُهُ زَاخِــــرَهْ
مَا شَرَفُ النِّسْبَـةِ إِلّا التُّقَـى ** أَيْنَ تَهيمُ الأَنْفُـسُ الـفَاخِـرَهْ
مَنْ يَطْلُبِ العِزَّ بِغَيْرِ التُّقَــى ** تَرْجِعْ عنْه نَفْسُتـهُ دَاخِــــرَهْ
أَعْرِضْ عَنِ الـدنْيـا تَكُنْ سَيِّدًا ** بَـلْ مَـالِـكًـا فيهـا وَفِي الآخِــرَهْ
(النبوغ) (29)

وللشيخ عبد السلام جسوس:

إذا ما خُصّ بالأموال ناسٌ ** وخَصّ الله قلبَك بالعلوم
فَلازمٌ شكْر ربكَ كُلَّ حين ** إذا ما كنْت مِنْ أهْل الفهوم
وَسَافِرْ عنهم بالقلْب سافر ** وحطّ الرَّحْلَ في باب الكريم
(النبوغ) (30)

يلاحظ "خُصَّ" الأولى مبنية للمجهول نُسبت إلى متاع الدنيا. و"خَصَّ" الثانية مبنية للمعلوم وفاعلها ظاهر(الله) لأنها منسوبة إليه؛ فشتان بين هذا وذاك، والسفر في الأبيات يحيل على السفر الروحي القلبي، أكّده الشاعر المغربي الشيخ عبد السلام جسوس، توكيدا لفظيا بتكرار فعل الأمر (سافر)... وقد جاء السفر على لسان الشاعر يعكس أحد تجليات القيم الروحية، لأجل الارتقاء في ملكوت الجمال، فالمسافر بالقلب لن يحطّ رحله بالفنادق، وإنما "بباب الكريم"، إذا كان مِمّن ينفعهم علمهم...

---

[29]- نفس المصدر السابق، ج3-ص:844- 845
[30]- نفس المصدر السابق، ج3-ص: 857

ويقول أيضا:

إذا ما اعتز ذو جهل بمال ** وعظم في نفوس الجاهلينا
فأهل العلم أعلى الناس قدرا ** وأعظم عند رب العالمينا

(النبوغ) [(31)]

وللعلم وسام الشرف في تصور منظومة القيم، وخاصة إذا كان يرقى بصاحبه نحو مراتب الشرف ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ الآية[32]. فالعلم النافع يجعل الطالب متواضعا، متخلقا، مؤدّبا، يرفعه علمه المكانة المحترمة بين أفراد المجتمع...

واقرأ لأبي حفص الفاسي هذه الأبيات تزيدك اقتناعا وارتواء وجمالا ورقيّا... فاملأ جرابك من شعره.

ودونك العلم لا تبغي به بدلا ** وعظم في نفوس الجاهلينا
فأهل العلم أعلى الناس قدرا ** وأعظم عند رب العالمينا
فاملأ جرابك منه غير مكترث ** بما يراه أخو كبر وذو خجل

(النبوغ) [(33)]

خاتمة:

إذن فسيميائية القيم تبحث في الأثر الذي تغرسه منظومة القيم باعتبارها مجموعة متناسقة من الفضائل الدينية والخلقية والتربوية والروحية والنفسية والاجتماعية... إذ تبدو جلية في الخطاب الشعري المغربي من خلال كتاب النبوغ الذي ينم عن نبوغ مغربي أصيل، ومتأصل بأصول رؤية ثاقبة معطّرة بنفحات الجمال والجلال، متمسكة بجذور الحق والحب والخير في معالجة القضايا

[31]- عبد الله كنون، "النبوغ المغربي"ج3- ص: 857.
[32]- سورة الزمر، الآية: 10.
[33]- عبد الله كنون، "النبوغ المغربي"ج3- ص: 871.

الحقيقية في عالم الإنسانية، بما ترفده من تناقضات في عالم تسوده مجموعة من العلاقات (الاجتماعية والسلوكية والنفسية والفكرية وغيرها) رافعة شعار الخير بدل الشر، والحق بدل الباطل في طبق شعري مزدان بقيم الجمالية...

فالآثار الشعرية التي حاولت هذه القراءة معالجة منتخبات شعرية منها، هو بشكل أو بآخر يحمل ضمن طياته من منظور هذه المقاربة تفسيرات وتأويلات عن مدرسة شعرية مغربية، لها رؤيتها لواقع الأشياء وواقع الناس من حولها وليست معزولة عن شروطها الموضوعية.

هذه الرؤية التي تبَّين من خلال استقراء لباقة من النصوص المبثوثة في طيات النبوغ المغربي للعلامة عبد الله كنون الحسني أنها تحمل طابعا إنسانيا من أجل بث مجموعة من القيم.. لا تنفك تُصَوّبُ قضايا الناس والمجتمع ومشاكله المتضاربة، إلا باللجوء إليها ومن خلالها، لأنها تنبع من تصورٍ قيميّ متكامل، يسمو إلى تخليص البشرية من أهواء ومتاهات شتى، تكاد تهبط بالقيم النفسية والخلقية والإنسانية من معارج الارتقاء والصفاء والجمال الروحي إلى درك القبح والسماجة.. والانغماس في نرجسية الذاتية، وصلادة الطينية...

المصادر والمراجع

القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.

- أبو بكر الجزائري "منهاج المسلم"، دار السلام، القاهرة - مصر، الطبعة الرابعة.

- حسن الوراكلي، "من تجليات الرؤية في النص الشعري المغربي الحديث"، علامات في النقد، المجلد 10 ج3، الفلاح للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 2001،

- حكمت صالح، "دراسة فنية في شعر الشافعي"، مطبعة عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1984.

- درويش الجندي "الرمزية في الأدب العربي"، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى.

- عبد الله كنون "النبوغ المغربي في الأدب العربي"، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، 1975.

- عبد المالك مرتاض "الأدب والأدبية بحث في الماهية"، علا مات في النقد، المجلد 10 ج 40، الفلاح للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 2001،

- ابن قيم الجوزية، "الجواب الكافي"، مكتبة ابن تيمية، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، 1996

- محمد مفتاح، "تحليل الخطاب الشعري - استراتيجية التناص"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الأولى، 1985.